



مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

ألبير كامو: نظرة إلى الفقراء والواقع الاجتماعي

سناء السعدني

باحثة مغربية

20
23

www.mominoun.com

◆ بحث محكم
◆ قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة
◆ 18 دجنبر 2023

ألبير كامو: نظرة إلى الفقراء
والواقع الاجتماعي

الملخص:

تتناول هذه المقالة أعمال الكاتب والفيلسوف الفرنسي ألبير كامو (Albert Camus)، والمعروف بأفكاره الإنسانية والتزامه السياسي. وعلى الرغم من أن الفقر ليس الموضوع الرئيس لكتاباته، فإن كامو يُظهر حساسية عميقة للظلم الاجتماعي ومعاناة الفقراء من خلال أعمال مثل: «الرجل الثائر»، و«الغريب»... إلخ. ويتناول كامو موضوعات، مثل: الاغتراب، والوحدة، وعدم المساواة، مما يوفر نظرة ثاقبة فريدة للواقع المعيش للفقراء. وقد تأثرت وجهة نظره في العدالة والكرامة الإنسانية بشدة بالتجارب الاجتماعية غير العادلة التي عاشها خلال طفولته في الجزائر. ففي كتابه «الرجل الثائر» يحلل كامو مفهوم الثورة وعلاقتها بالظلم الاجتماعي، ويؤكد أن الثورة وسيلة ضرورية للنضال ضد الظلم، وحماية حقوق الإنسان، لكنه يُحذّر من مخاطر العنف، إذا لم يتم توجيهه بشكل صحيح. وفي روايته «الغريب» يحكي كامو قصة مرسولت الذي تم إعدامه بتهمة قتل غير مقصود، وتسلط هذه الرواية الضوء على الكيفية التي تجعل الظلم الاجتماعي يدفع الأفراد إلى ارتكاب أعمال عنيفة.

وتُعد أعمال كامو من أهم المساهمات الأدبية في مجالي الفقر والظلم الاجتماعي، وقد ساعدت في تسليط الضوء على هذه القضايا وتوعية الجمهور بأهميتها. وحتى اليوم، ما تزال مؤلفات كامو مصدر إلهام للعديد من الأشخاص المُلتزمين بالنضال من أجل العدالة والمساواة.

المقدمة:

تتفاقم مشكلة الفقر وتنتشر عدواه في مختلف أنحاء العالم وفي الجزائر (على سبيل المثال لا الحصر)، مما يؤدي إلى تأثيرات مأساوية في جميع مناحي الحياة، وقد تشكل تهديداً واضحاً لأمن الأفراد والمجتمعات. وفي هذا السياق المعقّد، تظهر شخصيات تُجسّد هذه الحقيقة المجهولة. ومن بين هذه الشخصيات تبرز شخصية ألبير كامو الذي انطلق لسبر غور هذه المسألة من خلال منظوره الفلسفي، والاجتماعي، والثقافي. أخذنا حيّ «بلكور العمالي»، حيث نشأ كامو، في رحلةٍ نحو تجربة الفقر، وكلّ تفاصيل وجدانه المعقدة. ففي هذا الحي المحروم، يعيش الفقراء معاناةً مشتركة تجمع بين ألمهم وفرحهم، ويتمسكون، بالرغم من الصعاب، بالتحديات ببساطة، ويستمرّون في طريقهم بالرغم من التكاليف والمعاناة.

وانطلاقاً من هذه الظروف، يخوض كامو رحلة لتجسيد رؤيته وتصويرها، حيث لا تنحصر نظرتة في الواقع الجغرافي، بل تمتد لتلامس تجليات الفقر على الصعيدين الفلسفي والاجتماعي. ويتبنى كامو موقفين متضادين، من حيث إنه من جانب، يرفض رفضاً مطلقاً التواصل مع الطبقات الغنية، ويتجنب، من جانب آخر، الاستمرار في مرافقة الأثرياء ومجالستهم. وهذا يكشف أن كامو ما زال يشعر في داخله بألم الفقر الذي نشأ وترعرع فيه. وعلى هذا الأساس، فإن كامو كان يعلن دائماً أن «الفقر قلعة بلا جسر متحرك»¹، مشيراً بذلك إلى أصوله المتواضعة ونشأته في أسرة عمالية². وتتجسد هذه الرؤية في أعماله المختلفة، مما يؤدي إلى طرحه العديد من التساؤلات حول دور الفقر كعامل يشكل هويات الأفراد الشخصية والاجتماعية، كما تتصف رحلة كامو بالاستثنائية والتميز، حيث يدخل عالم الأدب بأسلوبٍ منفتح متجاوز لتقاليد النخبوية وعاداتها، كما انطبعت أعماله بملامح الانسلاخ من الشكليات المعهودة لدى النخبوية مُجسّدةً مُعجزةً اجتماعيةً تُحدّق بأعين الحدود المفروضة وتتحدى الواقع.

إنّ هذا الفتى الذي نشأ وتربى في أحياء «بلكور» المحرومة شقّ طريقه، ليصبح علماً من أعلام الأدب والمشاهير، كاسراً قيود الزمان والمكان بقوة إرادته وعزمته. ومن غير الممكن نكران قوة الفقر في عملية الاستبعاد والطرده الاجتماعي في زمن يُعدّ فيه الثراء مصدراً للجذب والاندماج. وفي ظل ثورة التفكير الفلسفي، وأوج الانشغال بها، انكبّ كامو على الدراسات الاجتماعية والتحليل النقدي للمجتمعات التي تشهد تبايناً اجتماعياً. وتسلّط تفاصيل الحياة في الأحياء الفقيرة التي وثّقها في سنوات شبابه الضوء على تأثير الفقر في الهويات، والعلاقات الاجتماعية، والبيئة المحيطة التي تشكل جداراً يحجب تواصل الأفراد مع العالم الخارجي. وتعدّ رؤية هذا الفيلسوف حول الفقر مفتاحاً لفهم الجوانب المظلمة والملتبسة في التفاعلات الاجتماعية، كما أن رؤيته تمزج بين الواقع والتجربة، وتكشف عن وجوه الفقر المتعددة، وتخرق آثاره العميقة.

1 ألبير كامو - لويس جيرمان، المراسلات، 30 نيسان/ أبريل 1959، في «الإنسان الأول، الملاحق، غاليمار، (فوليو)»، 1994، ص 830

يسعى هذا البحث إلى التعمق في دراسة رؤية ألبير كامو حول الفقر من الناحيتين الفلسفية والاجتماعية؛ مع اللجوء أحياناً إلى استخدام اقتباسات من أعماله وأفكاره، لفهم هذا الموضوع المعقد، وسبر إمكانيات تطبيق (بعض) أفكاره في السياقات الحالية في الفلسفة وعلم الاجتماع.

تعد رواية «الغريب»³ من أبرز أعمال كامو التي تجسد رؤية كامو لمسألة الفقر، حيث يستكشف، من خلال الشخصية الرئيسة «مورسولت»، طبيعة العلاقات الاجتماعية والقيم المفروضة، ويخوض تجربة التمرد على المألوف، ويتجاوز دور الكُتّاب العاديين، لكونه فيلسوفاً ومفكراً اجتماعياً تنعكس رحلته الشخصية والمهنية على تنوع فكره وعمقه. ويتيح لنا استعراض مؤلفاته المتعددة فهم الرؤية التي يمتلكها حول الفقر، من خلال رصد مساره الأدبي، كما يبدو أن الفقر - بالرغم من كونه مظهرًا من مظاهر الضعف - لا يُعدّ موضوعاً أدبياً بالقدر الذي يستحقه، نتيجة ظروف غامضة ترتبط بتجربة مؤلف رواية «الغريب».

ويُعد مسار هذا الفيلسوف استثنائياً بلا شك، حيث يمثل معجزة اجتماعية ناجحة وقادرة على تجاوز حدود القدر بسهولة، علاوةً على أن كامو بحثَ على مرّ السنين، عن معنى وجوده الفلسفي الاستثنائي، معبراً عنه بشكل لا يمكن تجاهله، وهذا ما حفزه على صناعة اسمه ومجده ضمن العظماء الكبار، بالرغم مما قاساه في حياته، ليصبح أحد أبرز الكُتّاب وفلاسفة القرن العشرين. ولم يكن أحد يتوقع حينها أن هذا اليتيم الذي فقد والده، والذي ينحدر من سلالة عمال الزراعة، سيتم تكريمه بعد أن تمكن من الحصول على جائزة نوبل للأدب سنة 1959م⁴.

قد يكون الفقر حاجزاً في العديد من الحالات، لكنه لم يتمكن من إبطال الزخم المُبهر والمذهل الذي قاد كامو منذ شبابه ليصل إلى قمة الشهرة والنجاح، متجاوزاً كل الصعاب والتحديات التي واجهها. وعلى عكس الحياة التي ينعم به الأثرياء، فإنّ الفقر يسهم في نبذ أفراد وجماعات في المجتمعات، ويظهر هذا بوضوح من خلال الجهود المبذولة لعزل فئات الفقراء وهم الأكثر ضعفاً في مجتمعنا؛ وذلك نتيجة لانعدام العدالة الاجتماعية مكونين بذلك مناطق الفقر والاستبعاد الاجتماعي.

وفي هذا السياق، أوضح عالم الاجتماع إريك مورن (Eric Maurin)⁵ «أن ظاهرة عزل الفقراء تتم في مناطق مقيدة ومنبوذة»، ورأى أن الأفراد لم يعودوا ينقسمون إلى أثرياء وفقراء، بل إلى فئات اجتماعية عدة [...]، بل إن أصابع الاتهام بخلق أحياء فقيرة وجهت للفقراء والمهاجرين أو غير المؤهلين وغير المندمجين

3 تعد «الغريب» أول رواية للكاتب الفرنسي ألبير كامو، صدرت في عام 1942م. تنتمي هذه الرواية إلى المذهب العبثي في الأدب، وهي جزء من سلسلة دورة العبث التي تضم أعمالاً أخرى، مثل: «أسطورة سيزيف» وأعمالاً مسرحية أخرى. تُرجمت الرواية إلى العديد من اللغات، وصدرت النسخة العربية لأول مرة في عام 1997م، مترجمة من قبل محمد غطاس، ونشرتها الدار المصرية اللبنانية.

4 حصل الكاتب الفرنسي ألبير كامو على جائزة نوبل للأدب في عام 1957. تم منحه هذه الجائزة؛ نظراً إلى تأثير أعماله الأدبية والفلسفية العميقة في الثقافة العالمية. تنوعت كتاباته بين: الرواية، والمسرح، والمقال، وقد تناول فيها موضوعات، مثل: الفقر، والغربة، والتشكل الهوياتي. هذه الجائزة تعكس تقدير العالم لإسهاماته الفريدة والمؤثرة في عالم الأدب.

اجتماعياً، أو بالانخراط في تجمعات قبلية في المدينة أو ضواحيها⁷، وقد تطرق ألبير كامو، في كتاباته، إلى ظاهرة العزل هذه؛ فمنذ كتاباته الأولى، وصف كامو الفقر بأنه عالمٌ مغلقٌ خالٍ من الأبواب والنوافذ، حيث تعكس هذه الاستعارة الجغرافية، بوضوح، حقيقة وجود عوائق اجتماعية تمنع الفقراء من الولوج لفرص جديدة والتفكير في مستقبل أفضل. فالفقراء موجودون في عالمٍ داخلي معزول عن الخارج يُشكل جزيرةً مُنفصلةً داخل المجتمع. فالفقر أحد الحدود التي تفصل بين الفقراء وباقي أفراد المجتمع، فينفصل عالم الفقراء عن العالم المحيط بهم ليشكلوا وحدةً اجتماعيةً مستقلةً تمامًا⁷. وفي أزقة الأحياء الفقيرة التي وصفها كامو، يمكننا أن نرصد عوالم الفقر بجميع تفاصيلها المؤلمة والواضحة، حيث تُظهر لنا تلك التفاصيل الحالة المعيشية للناس في تلك المناطق، وكيف أثر الفقر في هوياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية.

وإذا نظرنا إلى الروائح التي تفوح من شوارع تلك الأحياء، والأصوات التي تملأ أزقتها، وألوان الحياة اليومية التي تُظهر تنوعها، نجد أن كل هذه الجوانب تعكس الوضع الذي يعيشونه، وتُجسد الحياة المحدودة لهؤلاء الأفراد في شوارعهم الضيقة وأزقتهم المتعرجة، حيث يجتمعون ويتشabكون في مواجهة تجاربهم المشتركة في محنة الفقر، مما يؤسس لوحدة اجتماعية فريدة تربطهم بعضهم ببعض. فالحياة في هذه الأحياء، تنبض بكل تفاصيلها، وتتجسد من خلال أنواع المأكولات التي يتقاسمونها، وروائح الأماكن التي تنبعث رائحتها جوارهم، وأصوات الحركة التي تعلو فوق رُكام الحياة اليومية. ومن خلال هذه العوامل، فإنهم يُشكلون جزءاً من عالمٍ مُترابطٍ يعكس تجاربهم وأنشطتهم في واقع الحياة المليء بالتحديات والتجارب.

تتسم نصوص ألبير كامو بقدرتها الاستثنائية على استقراء الجوانب المتعددة والمتنوعة ورصدها لظاهرة الفقر والتفاعل معها بما يفضي إلى كشف تأثيراتها العميقة والمعقدة؛ إذ تتجلى في أعماله الأدبية والفلسفية القدرة على التقاط جوانبٍ مختلفة من مظاهر الحياة المتصلة بالفقر، وتجسيدها بأسلوبٍ فريدٍ يُعبّر عن رؤية فلسفية عميقة، وتجربة شخصية غنية بالتفاصيل من خلال تفاعله مع هذه الجهات المتعددة للواقع.

يتمكن كامو من رسم صورةٍ لحقيقة الفقر المعقدة متعددة الأوجه، مما يفتح آفاقاً جديدة لفهمنا لتأثيراته في النفس البشرية وفي المجتمع بأسره، فيكشف تفكيره الفلسفي وتجربته الشخصية عن أبعاد غاية في التعقيد والتنوع، مما يضيف على رؤيته للفقر طابعاً متعمقاً وفريداً. ويتخذ كامو من رؤيته الفلسفية للفقر منصةً لاستكشاف عمق التفكير وأهمية التأمل العميق في تلك الظاهرة من خلال سرده وتقديمه التفاصيل والتجارب الشخصية، حيث نجح في إذهالنا بتعدد تلك الحقيقة، مما يدعونا إلى التفكير العميق والتأمل في تأثيراتها ونتائجها في الفرد والنسيج الاجتماعي.

6 المرجع السابق نفسه.

وتعكس رحلة حياة ألبير كامو قدرته على تجاوز الصعاب والتحديات التي فرضها عليه الفقر، حيث استطاع أن يتخطى حدودها، ويصعد نحو النجاح بقوة إرادته وشغفه، كما تنبثق من قصته قيمة الصمود والتحدي، وتتجلى فيها رسالة مُلهمة تحثُّ الأجيال الجديدة على النظر بعمق في وجه صعوبات الفقر، وتوجيه نفسها نحو تحقيق الإنجازات بالرغم من التحديات. وتمتد رسالة كامو عبر الزمان والمكان، وستظل تلهم الأجيال المتعاقبة وتشجعهم على التّفكير العميق في ظاهرة الفقر، وفي إمكانية الإسهام في بناء مجتمع أكثر عدالة وتوازناً، وفي كيفية ذلك الإسهام. وقد ترك كامو بصمةً عميقة في مجال الفلسفة والأدب، ملهماً العديد من العقول على مرّ الأجيال للتفكير بشكلٍ أعمق وتحقيق التغيير الإيجابي في العالم.

تحديات الفقر في حي بلكور: نظرة عامة

يتجلى في «حي بلكور» التناقض الواضح بين جماله الخفي وقبحه الملحوظ، ويُظهر هذا المكان مشهداً يعكس عواقب الفقر، وتتميز بيئته بأجواء حزينة وصاخبة وفاقدة للسحر الذي كان قديماً يُعرف به. ولقد أدى التزايد السكاني في هذا الحي المُزدحم إلى إهمال البُعد الجمالي، وتدهور حالته، واضطرار سكان هذا الحي إلى التخلص من الأشياء الزائدة، والاهتمام بالاحتياجات الأساسية فقط بفعل ضغوط الفقر؛ إذ يتسم سكن الفقراء بعدم وجود زخرفة أو اعتبار للأسلوب الجمالي، حتى الأثاث البالي، أو غير القابل للاستعمال، يُستخدم بالرغم من ذلك فترات طويلة، ويمر من جيلٍ إلى جيلٍ للقيام بوظائفه المهمة. ويشبه هذا الديكور تلك الوصفية في رواية «الغريب»، حيث يصرح البطل بأنه لم يعد يعيش «في هذه الغرفة بين: كراسي القش قليلة الاستعمال، والخزانة التي تلمع مرآتها، والطاولة التي تعمل كسرير جلدي»⁸.

يعتقد كامو أن مبدأ الاقتصاد التضامني يتنامى في البيئات الفقيرة من خلال الروابط الاجتماعية، حيث يصبح الفقر مصدرًا للتعلم أيضًا، وأنه من الممكن دائماً تحقيق الفقراء ما يبدو أنه مستحيل لهم تحقيقه في أعين الطبقة البورجوازية، من خلال تعاون أفراد الحي، وتضافر جهودهم؛ للقيام بأعمال مشتركة تعود بالنفع عليهم جميعاً. ويرى أن هذه التجربة تُمكنهم من فهم التحديات الصعبة التي لا يمكن للعائلات المتواضعة إيجاد حلٍّ سريعٍ لها. ويبدو ذلك واضحاً حين يجدون أنفسهم مضطرين إلى قبول وظائفٍ شاقةٍ ومنخفضة الأجر، والعيش في ظل خوف مستمر من البطالة التي تزيد من عبء فقرهم. وعلى الرغم من المجهودات التي يبذلونها، فإنهم غالباً ما يجدون أنفسهم أمام مزيدٍ من الخسائر في تجربتهم اليومية، فيعيشون في قلقٍ دائم، ويجدون صعوبة في الوصول إلى آفاق أفضل.

في عشرينيات القرن الماضي، كانت أدوات التحليل الإحصائي غير متطورة مقارنة بما هو متوافر اليوم، فكان من الصعب آنذاك استخدام البيانات الرقمية لفهم وقياس حدّة الفقر وحدة البؤس بشكلٍ دقيق، على مستوى الأفراد، والتمييز بين هاتين الحدتين؛ لأنّ البؤس يرتبط بعدم القدرة على تلبية الاحتياجات الأساسية، بينما ينبع

الفقر من صعوبة تلبية هذه الاحتياجات، وضرورة اتخاذ قرارات صعبة نتيجة نقص الموارد. وقد أشار الباحث رينيه شار⁹ إلى أن الفقراء يبذلون جهداً كبيراً؛ من أجل البقاء والحصول على لقمة العيش. وعادةً ما يكون عملهم صعباً وشاقاً، وبالنسبة إلى عائلات مثل عائلة كامو، يُعد شراء الملابس تحدياً آخر، فالملابس ليست ترفاً، بل هي استثمار ضروري يجب الحفاظ على استدامته. فضلاً عن ذلك، يُعاني الفقراء من الانزعاج والامتعاض، بسبب قلة النظافة، مما يؤثر سلباً في الصحة الجسدية والنفسية. ويعتقد كامو أن هناك إرادة سياسية تظهر من خلال هذه الظروف المتعددة، للحفاظ على البؤس الاجتماعي.

وفي إطار تناول مشكلة الفقر، والتعاطي معها، تنعكس أو تظهر هذه الرؤية السينيكية أو الكلبية في تحميل الفقراء مسؤولية استهلاك الكحول، مع أن النظام هو الذي يغذي هذا الاستهلاك، من خلال الإهمال وعدم توفير البدائل. ويعدُّ استهلاك الكحول عاملاً مفاقماً للفقر، حيث يؤدي إلى تفاقم الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للفقراء. وبالنسبة إلى الأمراض المنتشرة في الحي، يُشير كامو إلى أن الطاعون يُعد مرض الفقراء. وينتشر الطاعون انتشاراً أكبر بين الأفراد الأكثر فقراً وِعوزاً، والذين يفتقرون إلى الظروف الملائمة للحصول على الرعاية الصحية الجيدة. وتصبح الحواجز الصحية أكثر فعالية للأثرياء من أجل الوقاية من هذه الأمراض، بينما يبقى الفقراء عُرضة للمخاطر المتصاعدة، بسبب نقص الدعم والرعاية.

ويشير كامو إلى السل الرئوي بوصفه أحد المشاكل الصحية المترتبة على الفقر؛ لأنه يعكس وجود ظروف غير ملائمة للعيش، حيث يصبح مصدراً للأمراض والتدهور الصحي¹⁰، ويتسبب في انتشار مثل هذه الأمراض، كما يُظهر كامو، في تحليله لحي «بلكور»، الدور الذي تؤديه البيئتان الاجتماعية والسياسية في تفاقم تحديات الفقر. وتظهر السينيكية من خلال تحميل الفقراء مسؤولية بعض المشكلات، على الرغم من عدم توفير البنية التحتية اللازمة لتحسين الظروف المعيشية. ويستشهد كامو بأمثلة من حياته الشخصية ومعاناته من الفقر، لتسليط الضوء على المسؤوليات التي لا يتحملها النظام، ويتسبب بذلك في اتساع دائرة الفقر والضعف.

وفي الختام، يبرز تحليل كامو لتحديات الفقر في حي «بلكور» العواقب الاجتماعية والصحية المدمرة التي يخلفها الفقر، كما يكشف، من خلال سرد تفاصيل الحياة في هذا الحي عن الصورة الكاملة للفقر وتأثيراته في الفرد والمجتمع، ويؤكد ضرورة التدخلين السياسي والاجتماعي، للتغلب على تحديات الفقر، وتوفير فرص أفضل للفقراء من خلال تحسين البنية التحتية، وتعزيز الرعاية الصحية، وتشجيع الاقتصاد التضامني والمستدام.

9 René Char, «Le poème pulvérisé», in Fureur et Mystère, Gallimard, 1948

10 Préface de L'envers et l'endroit, Œuvres complètes, tome I, page 34

1. سعي كامو إلى التحرر من خلال التضامن واستكشاف التراث العائلي والتجارب الحسية:

يعتقد كامو أن التحرر ينبثق من خلال التلاقي بين الجانبين الفردي والاجتماعي، ويستمد الفرد من الجانب الاجتماعي ما يؤهله لبناء ذاته كفرد، مما يتيح له التخلص من القيود الاجتماعية المفروضة عليه. وفي روايته «الإنسان الأول»، يسلط كامو الضوء على رحلته الفردية نحو التحرر، حيث دفعه غياب الأب، وعدم وجود توجيه خارجي، إلى الاعتماد على نفسه في التعلم، وتبني جودة الأخلاق وبناء حقيقته بنفسه¹¹. ومع ذلك، فإنه يقر أيضاً، بأهمية المساعدة التي تلقاها طوال مسيرته، وقد كان للتضامنين الاجتماعي والثقافي تأثير دائم بالنسبة إلى تحرره الشخصي¹².

لقد أدت عائلة كامو دوراً حيوياً، بالرغم من الصعوبات المالية وإمكانياتها المحدودة للوصول إلى مصادر المعرفة. وشكل كلٌّ من الحب، والدفء الأسري، واحترام التعليم، عناصر رئيسة مكنته من تحقيق رغبته في التغلب على الفقر، من خلال المعرفة والانفتاح الفكري. ولا يمكن اختزال تحرر كامو في محبة الأسرة والتعاون وحدها، بل كانت رغبته، في التآلق والتفوق على الآخرين، مدعومة من قِبَل عائلة تسعى إلى الانتقام من الأيام الأليمة، محرراً أساسياً لتحرره أيضاً. كما استكشف كامو الثورة التي هي بالنسبة إليه تأكيداً إيجابياً لمعاناة الحياة والموت، والتي تدعو إلى إعادة النظر في الترتيب والقواعد الأساسية للعالم. ومع ذلك، يمكن أن تتحول الثورة إلى التدمير الكلي أيضاً، عندما يسود الإغراء العدمي. فقد كانت طريقه نحو التحرر موجهةً بنهج حسي تجاه العالم، كما أنه استفاد من تجربته الداخلية لفهم العالم من حوله، سعياً لتخليص نفسه من ربة القيود المفروضة عليه. وأدت ممارسته للرياضة دوراً حاسماً في مسار تحرره، من خلال ربط نموه المعرفي بنموه الوجداني، فكان الجسد بالنسبة إليه مقراً للروح، وكان إشباع رغباته الجسدية يساهم في سعادته وتحرره. وقد شكّلت آليات تحرير الأفراد غير المحرومين محور النقاشات المعقدة المتنوعة في المجالين الفلسفي والاجتماعي. وبينما كان كارل ماركس يدافع عن التحرير الجماعي من خلال الصراع الطبقي، فإن كامو أكد أهمية التحرير الفردي، مع التسليم بتأثير التعاون والعلاقات الاجتماعية. وتَشكّل مسار تحرير كامو من مجموعة متنوعة من العوامل، مثل: محبة العائلة، والتعليم، والعلاقات الاجتماعية، وسعيه إلى الانتقام. ويشكل Haut du formulaire و Bas du formulaire وويتحرر الأفراد الشخصي والفكري مقدمة لمفهوم معقد للآليات التي تمكّنهم من تحسين أوضاعهم الاجتماعية، ومع ذلك، تُطرح بعض المشاكل عندما يُعد العمل مجرد إنتاج لقيم الاستخدام، حيث يمكن أن يؤدي ذلك إلى رؤية مجردة جداً ومنفصلة عن الواقع الاقتصادي والحاجات الحقيقية للأفراد، ويتخذ العمل أشكالاً مختلفة، وفق أوضاع الإنتاج التاريخية، وخصوصاً في إطار الرأسمالية،

11 Le Premier Homme, Œuvres complètes, tome IV, pages 860-861

12 رسالة ألبير كامو إلى لويس جبرمان في 19 تشرين الثاني/نوفمبر 1957، في كتاب «الإنسان الأول» الصادر عن «فوليو»، غاليمار، 1994، ص 371

حيث يرتبط العمل أيضاً بقيمة الصرف. لذلك، من الضروري التفكير بشكل ملموس في العلاقة بين رأس المال والعمل المأجور في سياق محدد.

وفي هذا السياق، يمكن تمييز أسلوبين لمفهوم التحرر عند ماركس: تحرر العمل، والتحرر من خلال العمل. يختلف هذان الأسلوبان حسب الفترات الزمنية لكتابات ماركس، وتطور عمله المفهومي، مع مرور الوقت، أخذاً في الحسبان أحياناً أعمال فيورباخ، وهيغل¹³. ومن المهم أن نؤكد أن النقاشات الجدلية ليست دائماً بناءة، حيث يمكن أن تحجزنا في مواقف متجمدة ومتحجرة. فمن الأفضل التركيز على المشكلات التي تساعدنا في التفكير، وتطور فهمنا للقضايا؛ فالفصل بين الفردي والجماعي أيضاً أمر مُعقد، حيث يمكن أن تهتم القوى التحررية، على سبيل المثال، بالقضايا الفردية والجماعية على حدٍ سواء، سعياً للتفكير معاً، وتعزيز تمكين الأفراد؛ أي تعزيز قدرتهم على التفكير بأنفسهم، وصياغة أسئلتهم ومطالبهم الخاصة.

يُعد التحرر عند ألبير كامو موضوعاً يثير تساؤلات معقدة في علم الاجتماع. وللتفكير في هذا الموضوع، من الضروري تحديد القضية المركزية التي تربط بين الخاص والعام، من خلال المطالبة بالحق في التحدث نيابةً عن الجميع. فقد فشل فلاسفة ومفكرون أحياناً في التعبير الواضح عن الواقع اليومي للأفراد. ويلاحظ فوكو¹⁴ أن جيلاً جديداً من الفلاسفة والمفكرين قد تجهّز للتعامل مع القضايا العمالية، اعتماداً على تجاربهم المهنية والشخصية، وسعواً، بذلك، إلى البحث عن آليات السلطة والسيطرة في مجالات محددة، مثل الإسكان، والمستشفيات، والمصحات، وما إلى ذلك.

لا يكفي التحليل المجرد المنطلق من الظواهر العامة لهيمنة الطبقة البورجوازية؛ لأنه يتجاهل العوامل الفعلية والحالات المحددة التي تتم فيها ممارسة السلطة. ويكمن التحرر، بالأحرى، في فهم الآليات الدقيقة لعمل السلطة، وإجراءات الاستبعاد والمراقبة التي تنتشر في واقع الحياة اليومي. وعندما يفتقد الخطاب العمالي إلى القدرة على التواصل مع الحالات العملية، فإنه يصبح غير قادر على استيعاب آليات القمع العملية، ويظل عاجزاً عن تحفيز التحرر. ومن الأمور الأساسية التركيز على القضايا العملية والمشكلات المحددة التي تؤثر في كل فرد. ثمة ترابط بين الجانبين الخاص والجماعي في واقعنا الاجتماعي. والأمر الأساس هو العثور على ذلك الترابط بينهما، ودراسة آليات القوة في سياقات عملية. ويشكل ذلك تحدياً كبيراً للتقدم نحو تحرر حقيقي. يستند التحرر في المجتمع المعاصر إلى التفكيرين الاجتماعي والفلسفي، ويبدو أن الخطابين الفردي والجماعي اللذين يتم بناؤهما حول الفرد المعزول غير كافيين لفهم حالته، وللتصرف بالنسبة إلى الحالات العملية في الحياة اليومية. وحالة الأشخاص من دون وثائق هذه المشكلة، حيث إن الخطابين الفردي والجماعي، جنباً إلى جنب، غير قادرين على ملامسة حالة كل فرد بشكل فعلي. ولا يمكن أن يتحقق تحرر الفرد والجماعة لا في

13 Karl Marx, Manuscripts de 1844, Paris, Éditions Sociales, 1972

14 ميشيل فوكو، «حوار مع ميشيل فوكو»، في «قوله وكتابه»، المجلد الثاني، منشورات غاليمار، 2001، ص 154

الفردانية ولا في الجماعية، بل يكمن في مراعاة التفرد؛ لكون الظروف الخاصة التي يعيشها بعض الأفراد لها تأثيرات في المجتمع بأكمله.

ويُثار سؤال عن ماهية أن تكون مواطناً في مكان ما، مما يعيد تقييم معايير التوحيد المفروضة من قبل النيوليبرالية. ويتجلى التحرر بالتالي في النشاط والحيوية، مع قناعتنا بأهمية هذه المسائل وبوجوب العمل وفق لها. وفي انتقاده لهذا، يُبرز كامو إمكانية أن يكون الفقر مصدرًا للتحرير؛ وذلك بتقدير ما هو موجود، والبحث عن المعدوم. ويشير إلى أن الفقر يحد من ازدهار الفرد بشكل كامل، كما أنه يسلب الضوء على المفاهيم الرئيسة للتضامن والإرث العائلي، واستكشاف الطريق الحسية في مساره. ففي القرن التاسع عشر، لم تكن فكرة «سيادة الموضوع» من أسس علم الاجتماع، بل كان هناك تشديدًا على الترابط بين الفردي والاجتماعي، وهو ما يجد صدقًا في كتابات كامو حول التحرير.

وهناك ضرورة لاستكشاف آليات السلطة في سياقات واقعية، وعدم تبسيط تصورات الفردي والاجتماعي، وتبسيط الضوء على قيمة التضامن في سعيه للتحرير. وفي هذا السياق، يسلب التحليل العميق لسعي كامو نحو التحرير الضوء على أهمية التضامن، والإرث العائلي، واستكشاف الطريق الحسي في مساره الفكري والفلسفي. ما تزال هذه العناصر قائمة في عصرنا المعاصر، مشجعة القراء على المشاركة في سعيهم الشخصي نحو التحرير والتفاني في العمل من أجل عالم أفضل.

2. تحليل كامو للمظاهر غير العادلة في المجتمع:

يشدد كامو، في كتاباته الأولى، عمومًا، وفي روايته «الموت السعيد» خصوصًا، على أهمية الإرادة الخاصة؛ ويتمسك بهذه الإرادة بوصفها شرطًا ليكون الإنسان ليكون سيدًا لحياته الشخصية. ويعزز إيمانه بهذا المفهوم عزمته، ويحثه على الصمود والثبات، رافضًا قبول أي شيء يختلف عن معنى حياته الذاتية. هذا الموقف سيجعل مصيره في يديه، تمامًا كما يحدث في السياق التاريخي؛ إذ إن السعادة لا تتولد من الحظ أو المصادفة، بل هي ثمرة الانضباط والثبات. ومن أجل الهروب من حياة مستعبدة، يجب أن نرغب بشدة في السعادة، كما يرى ذلك ميرسولت في «المنزل أمام العالم»: «كان علينا أن نستعيد فرحنا يوميًا». والسعادة ليست متاحة للفقراء، كل شيء يجب أن يُبنى بأعنف العزائم، فقوانين الحياة تُعد شرطًا للسعادة. فالاستيقاظ في الصباح الباكر، والاستحمام المنتظم، والنظافة الشخصية الواعية، كل ذلك يُنظم الوقت ويحفز الجسم، من خلال تعزيز الإرادة، إرادة السعادة التي تحرك كامو، وتدعوه إلى الخروج من الفقر. ومن هنا تأتي ضرورة تجنب التسوية؛ لأن زمن السعادة هو هنا والآن¹⁵. فالأيام الجميلة القادمة، والليلة الكبيرة المنتظرة، والجنة السماوية أو الأرضية، لا تعني سوى تأجيل المساواة والعدالة إلى وقت لاحق. إنها تُحوّل الاحتياج إلى أحلام، فنضيق في غير المتاح وغير الواقعي. ويسلب كامو الضوء على هذا الشكل من السخرية من خلال كاليجولا: «فجأة شعرت

بحاجة لا يمكن تحقيقها»¹⁶ فالعالم غير قابل للتحمل بالنسبة له، وهو يتوق إلى تصوّر عالم آخر. ولكنّ سعيه يعد مستحيلًا، فتأجيل لحظة السعادة يعني قبول غيابها أيضًا. الأمل هو الاستسلام لقبول مصيرنا الحالي، وهو وضع السلاح قبل المعركة. والأمل له جانب مليء بالوعد وجانب مليء بالحزن. إنه تجنب للحياة واستسلامًا مأساوي، حيث يعد كامو اللجوء إلى أيام مشرقة في المستقبل «نهربًا مميّتًا»¹⁷؛ لأنه يعيش من أجل أفكار تمنح حلاً وهميًا للحياة، وفي النهاية تخونها. لم يُطوّر كامو فلسفة السخرية، بل طور فلسفة السعادة. فمن الضروري أن تصبح السخرية نقطة انطلاق بدلًا من كونها نفطة الختام، من منظور كثيرين¹⁸. ونقل الموقف من نهاية إلى بداية ليس أمرًا تافهًا، بل إنه يفتح المجال لبناء المعنى غير الموجود، فتكون النتيجة هي الثورة. فالفقر سخيف، وتراكم البؤس لا معنى له، فهذه الحالات الظالمة غير مفهومة ومثيرة للثورات الشعبية، والاحتجاجات، والانتفاضات التي تشبه احتجاجات «السترات الصفراء». في الوقت الحالي، تبرز التنافسية تقليل تكلفة العمل، وتقليل الأعباء الاجتماعية، وتقليل الضرائب المفروضة على الأثرياء، ومنح الدعم المالي للشركات الكبيرة من الدولة دون مقابل. ونتيجة ذلك، يحدث تراجع في الحقوق الاجتماعية وتفجير للعمال، في سياق تصاعد الفجوات بين الأغنياء والفقراء من خلال نوع من القلب السخيف للقيم يُفقر الذين يُنتجون، بينما يُثرى الذين يستفيدون بشكل تفاضلي. في مسرحية «العادلون»، يختار صاحب العمل تخفيض الرواتب للحفاظ على هامش الربح في أوقات الأزمات، ويدّعي أنه يُوظف عماله من أجل الرحمة، لكن بد أن مثل هذا الاستخفاف غير مقبول: «لقد انتابهم والغضب أيضًا بعد المناقشات الأولى مع صاحب العمل، فقد قال بجفاء: إنه يجب أن يتم القبول أو الرفض، لا يتحدث الإنسان هكذا»¹⁹. في مواجهة اللاعقلانية الاجتماعية تكون الثورة مشروعةً بالتأكيد؛ لأنها تستند إلى حق الكرامة الإنسانية، فالإنسان المتمرّد هو من يقول: «لا»²⁰. إن الشعور بعدم الانصياع ليس فرديًا، بل هو جماعي، ويؤدّ التناصر والتضامن بين المتمردين²¹. إنه الشعب الذي ينتفض، وليس بعض الأفراد. وإنها مجموعات اجتماعية مؤلّفة من كائنات بشرية متساوية في الحقوق، وغير متساوية في الحقائق. كما يأخذ كامو على عاتقه عبارة باسيوناريا دولوريس إيباروري التي تجسد بشكل جيد صرخة ثورة الأشداء: «يفضل الموت واقفًا على العيش مُجثي»²². في الثورة، لا يسعى الفقراء إلى الانتقام من الأغنياء، ولا يحسدونهم، ولا يُكنّون لهم ضغائن، إنما يطالبون فقط بالاعتبار والاحترام. فالثورة ليست بدافع الانتقام، بل بدافع الشعور بعدم الاعتراف بالقيمة الحقيقية للفرد. وعندما يثور الأفراد يجدون طبيعتهم الحقيقية. فهم إنسانيون؛ لأنهم يثرون. ولا يأتي وعي وجودهم من فكرهم، كما في فلسفة ديكارت، وإنما يأتي من

16 Caligula, OC, I, p, 331

17 Le mythe et le sisyph, OC, I, P 224

18 Le mythe et le sisyph, OC, I, P 219

19 Les muets, in l'exil et le royaume, OC, IV, p 36

20 L'homme révolté, OC, III, p71

21 L'homme révolté, OC, III, p74

رفضهم للخضوع: «أنا أتمرد، إذن أنا موجود»²³. يتقارب المبتلون جماعياً للتغلب على الوباء الرهيب، ويرتبطون بعلاقات غير متوقعة. كما يتوقف الأب «بانيلو» عن الوعظ، والقاضي «أوتون» عن الحكم، والصحفي المنفى عن الهروب، و«جوزيف جراند عن كونه موظفاً بيروقراطياً غير مفيد، و«كوتار» عن كونه في حالة ميؤوس منها. فهم يتجمعون، ويؤدي كل منهم دوراً مكماً في فريق الدكتور «ريو مبوليس» ضد الطاعون. كما تضع الثورة حداً لقبول عالم مغلق، وغيتو، وقلعة بدون جسر، وجزيرة منعزلة شكّلها الفقر. يرفض كامو طريقة حياة حي «بلكور» الضيقة، وإغلاق الأبواب أمام المعرفة والثقافات، ويسعى إلى توسيع نطاق وجهة نظره بالنسبة للحياة، فيستكشف تنوع الكائنات والأماكن، ليسلك في النهاية مجموعة متعددة من المسارات التي ستقوده دائماً إلى إظهار ذلك الصوت الفريد. فالفقر ليس عاملاً بل جزيرة. ويوسع كامو الحياة في الجزيرة، لاستكشاف العالم الذي أصبح مرجعه للسكن والثقافة. في عام 1937 يضع «البيت أمام العالم»، وفي العام نفسه، يهتم بلقاء الشرق والغرب، وكذلك بالثقافة المتوسطة، كما يهتم عن كذب، بالعالم المادي، وكذلك الروحي، وهو لا يحب الحدود أو التسلسل الهرمي الذي يكسر العديد من الروابط التي لا تُلاحظ، لكن التنوع أيضاً ثروة مهددة، ويجب الحفاظ على التنوع البيولوجي، وحماية الأعراق المهددة، والاحتفاظ بتفرد التراتب والحفاظ على تنوع الثقافات. إنها الوحدة التي تهددنا، والفكرة الوحيدة التي تحيط بنا، والتوحيد الذي يتربص بنا أمام العولمة العمياء.

يدرك كامو التنوع الثقافي، ويشترك مع كلود ليفي ستروس، المستشار الثقافي الفرنسي الذي التقاه في نيويورك سنة 1946م، في عدم الثقة المتبادلة في خصوص المركزية الإثنية والتراتب المفترض للثقافات. ويفهم كامو فضيلة السفر، وفائدة قراءة كتاب العالم، فيسافر إلى الولايات المتحدة، وأمريكا اللاتينية، وأوروبا الوسطى، والسويد، وإيطاليا، وإسبانيا، وسويسرا، وبريطانيا. ويخضع لتجربة قاسية للتغرب والنفي، خلال إقامته في أوروبا الوسطى، حيث يتطلب السفر، عندما يكون الإنسان فقيراً، مجهوداً واجتهاداً كبيرين، كما «يجب أن يكون هناك جهد غير عادي للسفر بلا أموال... فالسفر ليس أمراً مبهجاً ولا سهلاً، ويجب أن يكون لديك ذوق للصعوبة، وحب للمجهول لتحقيق أحلامك في السفر، عندما تكون فقيراً وبدون أموال.» يمثل تفكير كامو منهجاً فلسفياً يركز على تحليل العديد من جوانب المجتمع، والتركيز على المظاهر غير العادلة التي تنبثق منه.

ويعكف كامو، من خلال أعماله وكتابات، على استكشاف التوازنات والعدالة المفقودة في البنية الاجتماعية، وينطلق، في تحليله، من فرضيته الأساسية التي تنص على أن الحياة تخلو من المعنى الذي نسعى جميعاً لإيجاده. ويمكن لهذا التفرغ للعبثية أن يفضي إلى تفاقم الظلم والتمييز في المجتمع، ويسعى كامو إلى فهم كيف يمكن للإنسان أن يواجه هذه الظروف غير العادلة، وأن يكون له دور في

تحقيق التغيير، وبالتركيز على الظلم الاجتماعي، يقدم كامو تحليلاً عميقاً لهذه القضية مستنداً إلى مفاهيمه الفلسفية، مثل التمرد، والحرية، والمعنى.

3. صمود المحرومين - فلسفة السخرية كقوة محرّكة:

في هذا القسم، سنهتم بمعنى صمود المحرومين في ظل الظلم الاجتماعي، من خلال فلسفة السخرية لألبير كامو التي وضعها لمواجهة التناقضات والسخرية، والتي كانت محرّكاً للأفراد المحرومين الذين غالباً ما يجدون أنفسهم في مواجهة مواقف لا مفر منها. فليس لدى كامو تعاطف كبير مع المسؤولين المغرورين، ورجال الأعمال غير المضمونين، الذين يستغلون بؤس الآخرين. ففي «الطاعون»²⁴، ثمة استنكار شديد للتكنوقراطية السلبية، وللتجارة الهمجية المدمرة التي كانت واضحة للغاية في وهران. ويلاحظ كامو أن سكان وهران يعملون دائماً من أجل الثراء²⁵، مفضلين التجارة والأعمال على الثقافة والإنسانيات، كما يفكر الأثرياء في السلع والاحتياجات الأساسية فقط في أثناء فترة الطاعون.

والمسؤولون الذين يتجنبون الفقر «كانوا في معظم الأحيان رجالاً لديهم أفكار دقيقة [...] حول كل ما يتعلق بالبنك، والتصدير، والحمضيات، أو حتى تجارة النيذ التي يمتلكون معرفة لا لبس فيها في مسائل النزاع أو التأمين [...]، ولكن فيما يتعلق بالطاعون، كانت معرفتهم تقريباً معدومة. إذن، إذا كان الفقر يُعلم، فإنه يجب ألا تكون وجهة للوجود، ويجب أن يُنظر إلى الفقر كوسيلة وليس كغاية، ويجب أن يكون مؤقتاً وغير دائم، ولا يمكن أن يكون سوى بدايةٍ وليس نهايةٍ، وليس مقدراً على كائنات أن تكون فقيرة أو أنها ستصبح كذلك، جيلاً بعد جيل، بموجب حتمية تاريخية.

ويؤكد كامو بشكلٍ جلي رفض سلسلة الفقر المميتة هاته، ويرى أن السخرية ليست سوى الانغلاق في البؤس. ويؤدي قبول هذه الفكرة إلى فقدان القيم النبيلة والشعور بروح الإنسانية. وهذا ما يثير تساؤلات حول الحتمية الاجتماعية وطبيعتها التي لا يمكن تجنبها. فدورة السخرية في عمل كامو تظهر الطريق إلى التحرر من الغيتو الاجتماعي. فعندما اكتشف الفيلسوف عدم وجود معنى للتعاقب الجيلي المُكرّس للفقر والنسيان، وضع يده على آليات التكرار الداخلي: يحدث ذلك لأن الفقير يكرر فقره كما لو كان طبيعة ثانية، ويمنع نفسه من التّفكير فيه كأمر غير منطقي، ويبقى أسير أوهامه. لا شيء يبدو غريباً بالنسبة إلى من يتبع هذا المسار منذ وقت طويل. في عالم كامو، كانت الدودة حاضرة بالفعل في الثمرة، حيث كانت السخرية وما يترتب عليها من تمرد تتقدم، وكان كل شيء يتعاون لتحريره من القيود الاجتماعية، سواء من خلال الكتب أو المدرسة. وفي عالم بلكور، كان كامو يسعى دائماً للهروب من هذه الحياة، إما من خلال رغبته في الجمال وفرح العيش، أو عبر ممارسة الرياضة واستنشاق الثقافة، للابتعاد عن ظلم النوم الإجباري في غرفة جدته المظلمة.

24 La Peñe, OC, II, p. 210

25 Ibid, p 106

لا يستطيع كامو تصور لحظة واحدة فقط من اليأس في الحياة، ومن الفقر، بدون أمل في حياة أفضل. فإذا كان الفقر حالة فريدة، فإن قبوله من قبل الروح الإنسانية غير منطقي. يلاحظ زاغريوس، بشكل صحيح، أن «مورسولت» يعاني من العقوبة المزدوجة من خلال عيشه مرحلة فقره. ويستنكر «مورسولت» ذلك، ولكنه يوافق عليه، على الرغم أنه غير متفق مع نفسه، وحائر؛ نتيجة لتناقض مُحير، عند قبوله الفقر كظرف طبيعي. وبدءاً من رواية «الموت السعيد»، يرفض كامو «هذه اللعنة البائسة والمثيرة للاستياء التي تجعل الفقراء ينتهون في البؤس الذي عرفوه منذ البداية». هناك استحالة في الموافقة مسبقاً على البؤس، عندما تظهر آفاق السعادة. فالعيش وفق ظروف فريدة ليس عيشاً، بل إنه تفويت للحياة. إن جميع الأفراد الذين لم يتخذوا خطوات حاسمة لجعل حياتهم أفضل كانوا يعيشون حياة لم يتورطوا فيها، ولم يعيشوا بما فيه الكفاية؛ لأنهم لم يعيشوا مطلقاً. فالحياة غير المبررة تظل افتراضية وغير محققة، والحياة المبررة التي تستجوب وضعها هي الحياة الحقيقية. وتقوم فلسفة السخرية لدى كامو على فكرة أن الوجود البشري لا يمتلك معنىً داخلياً، وأنها نواجه عالماً غير مُبالٍ ومربكاً. وبالنسبة إليه، يمكن أن يؤدي هذا الوعي بسخرية الحياة إلى الاغتراب واليأس. وبدلاً من ذلك، سعى كامو إلى جعلها قوة محررة، لإيجاد معنى وقيمة في الوجود على الرغم من التحديات. من خلال اختياره أن يكون سعيداً، جعل «مورسولت» حياته تصارعاً قاده إلى الأمام، ومكّنه من خلق مصيره الخاص. وتحرّر «مورسولت» من هذه الحياة المزيفة التي تُعلّم الفرد كيف يخادع مشاعره، وبالتالي، أن يتنكر للتساويات السهلة مع الآخرين، من أجل إرساء توافق بثمن حياة زائفة تهرب منه. لقد حُكِمَ عليه بسبب عدم بكائه في جنازة أمه. وطالب بقوة بحقه في أن يكون غير مُبالٍ، وبحريته في الإيمان أو عدمه. وبالنسبة إليه، فالسعادة هي تحمل هذا المصير الفريد الذي يؤدي إلى العيش وفق مشاعره، وليس وفق مشاعر الآخرين. وغالباً ما يتعرض المحرومون، أولئك الذين يعيشون في الفقر ويعانون من الظلم الاجتماعي، لمواقفٍ سخيفةٍ ومربكة؛ فقد يشعرون بالعجز واليأس أمام أنظمة تقلل من قيمتهم. وهنا يظهر أثر فلسفة السخرية لكامو التي أدت دوراً مهماً تجسّد في تقديم منظور جديد لوضعهم. يدعو كامو المحرومين إلى اعتماد موقف الثورة والتمرد أمام سخرية العالم، فالثورة، برأيه، هي تعبير ذاتي عن رغبة الإنسان في العيش بكرامته وحرية. إنها تأكيد على إرادة العيش بشكل كامل، والتمتع بكامل الحقوق. بالطبع، يمكن للمحرومين أن يتمردوا ضد الظلم الاجتماعي الذي يكبلهم، وأن يبحثوا عن إنشاء معنى خاص بهم وعن قيمهم الخاصة في عالم يبدو عديم الدلالة. غالباً ما يُجسّد كامو في أعماله شخصيات تواجه تحديات أخلاقية وخيارات صعبة، ومواقف متناقضة وقرارات مستحيلة، لكنها تُظهر صموداً من خلال رفض الاستسلام. المثال البارز يتمثل في شخصية الدكتور ريو، في رواية «الطاعون» الذي يبقى مصمماً على مكافحة المرض وإنقاذ الأرواح، ويظهر قوة أخلاقية وصموداً استثنائين، على الرغم من خطورة الوباء والخراب الذي يحيط به.

وتُقدّم فلسفة السخرية عند كامو للمحرومين طريقة لتحرير أنفسهم من وطأة الظلم الاجتماعي، وإعادة اكتشاف إنسانيتهم، من خلال اعتناق السخرية من حالة البشر، بما يمكنهم تحرير أنفسهم من الأوهام والتوقعات المخيبة، والتركيز على ما هو أصيل ومهم في حياتهم، والسعي إلى العيش بالكامل في اللحظة الحالية

على الرغم من العقبات والصعوبات. ويدرك «كامو» أن الصمود أمام الصعوبات الاجتماعية هو تحدٍّ دائمٌ ومطلوب، ولا يقلل من معاناة المحرومين، ولكنه يدعوهم إلى مواجهة واقعهم بشجاعةٍ وتصميم. وتقدم فلسفة السخرية لهم منظوراً فلسفياً، للتغلب على غياب المعنى الظاهر، ولإيجاد معنى عميق لوجودهم الخاص. ويعتقد كامو أن صمود المحرومين هو تمرد ضد الظلم الاجتماعي، وإكرام للكرامة الإنسانية ولقيمة كل فرد، بصرف النظر عن وضعه الاجتماعي. كما يؤكد أن التمرد يمثل قوة متينة بإمكانها إحداث تغييراتٍ اجتماعية ومحاربة عدم المساواة.

خاتمة:

من خلال استخدام فلسفة السخرية كقوة محرّكة يمكن للمحرومين تجاوز وضعهم الصعب، وتحويل أهمهم إلى مصدر للقوة والصمود، يذكّرنا كامو بأن الحياة قد تكون ساخرة وظالمة، ولكن لدينا القوة للتفاعل وإضفاء معنى على وجودنا. وتدعو فلسفة التمرد المحرومين إلى المشاركة في السعي إلى تحقيق العدالة، ومحاربة الاختلافات الاجتماعية، والعمل من أجل عالم أكثر عدالة ومساواة، في عالم تسيطر عليه الفردية واللامبالاة. وتذكر فلسفة السخرية عند كامو المحرومين بأنهم ليسوا وحدهم في كفاحهم ضد الظلم الاجتماعي، كما يمكن أن يكون التمرد محفزاً للعمل الجماعي، والتضامن، والتغيير الاجتماعي، كما يمكنه أن يشجع المحرومين على الاتحاد، والتنظيم، والعمل معاً من أجل بناء مجتمع أكثر عدالة وإنسانية.

إن فلسفة السخرية عند كامو التي ترى في السخرية محرّكاً للصمود لدى المحرومين أمام الظلم الاجتماعي، تقدم لهم نهجاً فلسفياً يتضمن منظوراً جديداً لوضعهم، ويدعوهم إلى اعتناق تمردهم الخاص ضد سخرية العالم. ويصبح التمرد بذلك فعلاً لتأكيد كرامة الإنسان، ووسيلة لمحاربة الاختلافات الاجتماعية، كما تسلط فلسفة السخرية لكامو الضوء على أهمية الصمود والتمرد، لتجاوز تحديات الحياة، والسعي من أجل عالم أكثر عدالة ومساواة للجميع. وباستنادهم إلى هذه الفلسفة، يمكن للمحرومين أن يجدوا القوة للنهوض والمقاومة أمام الصعوبات؛ وذلك من خلال إظهار إنسانيتهم وكرامتهم.

من خلال تحليل الإقصاء الاجتماعي، وتسلية الضوء على الظلم الاجتماعي، يتضح لنا أن ألبير كامو ليس مجرد كاتب أدبي، بل هو صوتٌ يدعو إلى تحقيق المعنى والإنسانية المشتركة، ويعمل كموجه نحو تحقيق تغيير إيجابي في المجتمع، من خلال دعوته إلى بناء مجتمع أكثر عدالة وتضامناً، يحث كل فرد على المشاركة في محاربة الفقر والعمل من أجل مستقبل أفضل، حيث يُحترم الجميع، وتتم معاملتهم بكرامة.

إن نهج كامو التفاعلي المتعاطف مع المحتاجين يقربنا أكثر من تحقيق حلمه في عالم تسوده العدالة والإنسانية، ويعد الفقر مشكلة وجب التصدي لها جماعياً. ومن خلال دعوته إلى تبني سياسات لمحاربة الفقر وتحسين ظروف المحتاجين، يُظهر كامو أهمية التعاون والتضامن في تجاوز هذه التحديات. فالفقر ليس مجرد

نقص مادي، بل هو تداعيات اجتماعية تحتاج إلى معالجة شاملة. ويرى كامو إمكانية التأثير السلبى للفقير في إمكانية التقدم والتطور الشخصي، حيث يحرم الأفراد من الفرص الأساسية، مثل التعليم، والصحة، والمشاركة المدنية. ويبقى فكر كامو حيًا يلهم الأجيال المتعاقبة للمشاركة في الجهود المبذولة لمكافحة الفقر، وتحقيق العدالة الاجتماعية. وتذكرنا رؤيته بأنه يجب ألا نقبل الفقر بوصفه واقعًا لا مفر منه، بل يمكننا تغيير هذا الواقع من خلال التحرك المشترك، والعمل نحو تحقيق تغيير إيجابي. من أجل تحقيق هذا التغيير، يجب أن نستوحي من روح التعاطف والإنسانية التي دعا إليها كامو، وأن نتجاوز النظرة الضيقة للفقير، وأن ندرك أنه نتاج نظام اجتماعي يحتاج إلى تصحيح. كم ينبغي أن نعمل معًا، لنصبح أصواتًا لمحتاجينا، وندافع عن حقوقهم، ونطالب بتغييرات هيكلية، لتحقيق هذا الغرض. وفي هذا المسعى، يمكننا أن نجد التوجيه والقوة من خلال الفلسفة الإنسانية التي نشرها كامو، فيعلمنا التعاطف والتضامن بضرورة الوقوف جانب الأشخاص الذين يعانون من الفقر والسعي معهم إلى تحسين أوضاعهم.

ينبغي البناء على إرث كامو من خلال التعليم والتوجيه للأجيال الجديدة، وتشجيعها على النقد الاجتماعي، والتفكير في سبل تحقيق التغيير، كما يجب علينا العمل معًا، بوصفنا مجتمعًا موحدًا لتحقيق التقدم والتغيير نحو عالم أكثر عدالة وتضامنًا. ويظل ميراث كامو حيًا بمعنى وتوجيه يلهمنا للعمل من أجل مستقبل يُحترم فيه الجميع، بما يساعد في بناء عالم أكثر إنسانية وعدالة. ويتطلب تحقيق هذا المسعى تضافر الجهود والتفكير الإيجابي، ويمكننا أن نستفيد من التعاون بين الحكومات، والمنظمات غير الحكومية، والأفراد، لتطبيق سياسات عادلة تقلل من التفاوتات الاجتماعية، وتعزز مستوى العيش عند الجميع.

نجد في أعمال كامو دعوة إلى تحقيق التوازن بين النقد والعمل الفعلي. ويمكننا أن نعيش تلك الفلسفة من خلال دعم المشاريع الاجتماعية والاقتصادية التي تهدف إلى تحسين ظروف المحتاجين، وتوفير الفرص للتعليم. وللوصول إلى هذا الهدف، يجب أن ننظر إلى الفقر على أنه مشكلة جماعية تحتاج إلى حلول جماعية، كما يمكن للحكومات أن تؤدي دورًا حيويًا، من خلال وضع سياسات اجتماعية تحقق التوزيع العادل للثروة، وتوفير الفرص المتساوية للجميع. فضلًا عن ذلك، يجب أن يكون للأفراد الدور النشط في تغيير الواقع، ويمكن للتطوع والعمل الخيري أن يؤدي دورًا كبيرًا في دعم المجتمعات المحتاجة، وتوفير الدعم اللازم. التعليم والتوجيه مفتاح الوصول إلى مستقبل أفضل. ويجب أن نستثمر في تعليم الأجيال الصاعدة حول قضايا الفقر والعدالة الاجتماعية؛ ليصبحوا قادة مستقبليين يدركون دورهم في بناء مجتمع أفضل.

وهكذا، يمكننا أن نستلهم من رؤية كامو وقيمه؛ لنخلق عالمًا يحتضن الإنسانية والتضامن. ويجب أن نتحد كمجتمع لمواجهة التحديات الاجتماعية والاقتصادية، وأن نعمل معًا من أجل إحداث تغيير إيجابي يحقق التوازن والعدالة. ولنا أن نتذكر دائمًا أننا قادرين على تحقيق التغيير، وأنه، من خلال التفكير الإيجابي والعمل الملتزم، يمكننا أن نحقق عالمًا أفضل للجميع. وللإستفادة من التوجيه الفلسفي لكامل، يمكننا أن نكون أبطال التغيير والعدالة، وأن نخلق مجتمعًا يتسم بالإنسانية والتضامن؛ لذلك يجب أن نجعل من قيم التعاطف

والتضامن أسسًا لعملنا. ويجب أن نتجاوز الانفصالية والانغماس في ذاتنا، ونعمل بروح الجماعة لنحقق تغييرًا إيجابيًا. ويمكن للتواصل والتعاون مع المنظمات والجمعيات غير الحكومية والجهات الحكومية أن يكونا وسيلة لتعزيز الجهود المشتركة لمواجهة الفقر. وينبغي لنا أن نتذكر أن الفقر ليس مصيرًا لا مفر منه، بل هو وضع يمكن تحسينه وتغييره، ويجب علينا أن نستخدم أدواتنا وقدراتنا؛ لمواجهة التحديات الاجتماعية والاقتصادية، وتحقيق تحسينات حقيقية في حياة الأفراد المحتاجين. ومن المهم أن نتعامل مع قضية الفقر بروح إيجابية وأمل في التغيير. كما يجب أن نعمل بجدية وإصرار؛ لتحقيق النتائج الملموسة، وأن نتعلم من الأمثلة الناجحة والخبرات السابقة. وبالتالي، يمكننا أن نجمع بين الفلسفة الإنسانية لكامو والعمل الفعلي لتحقيق مجتمع أكثر إنسانية وعدالة. ويتطلب الأمر توجيه الأفراد وتحفيزهم للمشاركة الفعالة في الجهود الاجتماعية والسياسية التي تهدف إلى تحقيق التغيير المطلوب.

وفي الختام، تبقى رؤية ألبير كامو مُلهمة وحاسمة في الزمان الحاضر، وهي تذكرنا بأهمية العمل المشترك من أجل مستقبل أفضل، وبضرورة تشجيع تطوير مجتمعات تعتمد على الإنسانية والعدالة، وتبني روح التغيير والتضامن، والعمل بشكل مستمر لمكافحة الفقر وتحقيق التقدم والرفاهية للجميع.

الهوامش:

- ألبير كامو - لويس جيرمان، المراسلات، 30 نيسان / أبريل 1959، في «الإنسان الأول، الملاحق، غاليمار، «فوليو»، 1994، ص 830
- L'envers et l'Endroit, Œuvres complètes, tome I, page 32
- Eric Maurin, Le Ghetto français, Seuil, 2004
- Louis Raingard, Œuvres complètes, tome I, page 89
- L'étranger, Œuvres complètes, tome I, page 152
- René Char, «Le poème pulvérisé», in Fureur et Mystère, Gallimard, 1948
- Préface de L'envers et l'endroit, Œuvres complètes, tome I, page 34
- Le Premier Homme, Œuvres complètes, tome IV, pages 860-861
- رسالة ألبير كامو إلى لويس جيرمان في 19 تشرين الثاني / نوفمبر 1957، في كتاب «الإنسان الأول»، الصادر عن «فوليو»، غاليمار، 1994، ص 371
- Karl Marx, Manuscrits de 1844, Paris, Éditions Sociales, 1972
- ميشيل فوكو، «حوار مع ميشيل فوكو»، في «قوله وكتابته»، المجلد الثاني، منشورات غاليمار، 2001، ص 154
- La mort heureuse, Œuvres complètes, tome I, page 1153
- Carnet 1, Cahier, Œuvres complètes, tome II, page 832
- La mort heureuse, Œuvres complètes, tome I, page 1155
- Caligula, OC, I, p, 331
- Le mythe et le sisyphé, OC, I, P 224
- Le mythe et le sisyphé, OC, I, P 219
- Les muets, in l'exil et le royaume, OC, IV, p 36
- L'homme révolté, OC, III, p71
- L'homme révolté, OC, III, p74
- La Peste, OC, II, pp.106, 210

 Mominoun

 MominounWithoutBorders

 @ Mominoun_sm

info@mominoun.com

www.mominoun.com

مُهْمِنُون بِلا حدود

Mominoun Without 3orders

www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

